أهــــل اللَّيــــل

القُــــرآن

«مزامير أنس ، فى مقاصير قدس ، بألحان توحيد ، فى رياض تمجيد ، بشدو المثانى فى تلك المعانى المؤدية بأهلها إلى النعيم الدائم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. هذا طعم الخبر فكيف طعم النظر».

والـلـيـل تحلـو بـه اللـقـيا وإن قصرت
ســاعــاتها مــا أحبــلاها وأحلاه ! !
فـنـوره يجعـل الـلـيـل البهيم ضـحـى
فما أجَـلّ ومـا أُجْـلَى مُـحَـيَّـاه[1]

(١) رسالة شوق وحنين من ديوان نفحات ولفحات للقرضاوى ص ١٠٠

جعل الله عزّ وجل نزول القرآن نعمة لا تحصى فقال تعالى ﴿**أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**﴾[1] .

● وقال تعالى ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه**﴾[2] .

قال ابن عباس : المهيمن : الأمين ، القرآن أمين على كل كتاب قبله .

● وقال تعالى : ﴿**قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**﴾.

قال ابن عباس : فضل الله الإسلام ، ورحمته : أن جعلكم من أهل القرآن .

وسماه مولانا عز وجل شفاء فقال تعالى : ﴿**وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة**﴾ وسماه نورًا لتوقف الهداية عليه ﴿**قد جاءكم من الله نورٌ وكتاب مبين**﴾ .

● وقال تعالى ﴿**وهذا ذكر مبارك أنزلناه**﴾ .

وقال تعالى ﴿**لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه ذكركم**﴾ أى شرفكم وما تُذكرون به .

وسماه روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، وهى حياة القلب فقال تعالى : ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورًا نهدى به من نشاء من عبادنا**﴾ .

---

(١) العنكبوت آية ٥١ .

(٢) المائدة آية ٥١ .

• وهو أحسن الحديث قال تعالى ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾[1] .

• وقال تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبْلُ . فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[2] .

• وقال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ وقال تعالى فى حق الذين أوتوا العلم : ﴿ **إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾ .

وبيْن القرآن ورجال الليل والليل أوثق العرى إلى يوم القيامة ، كيف لا وما بدأنزول القرآن وإشراقة النور إلا فى ليلة من الليالى .

ولنعلم قدر هذه الصلة يكفينا حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : «كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى شهر رمضان ، لأن جبريل كان يلقاه فى كل ليلة فى شهر رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة »[3] .

وفى الحديث كما قال الحافظ ابن حجر أن ليل رمضان أفضل من نهاره ، وأن المقصود من التلاوة الحضور والفهم لأن الليل مظنة ذلك لما فى النهار من الشواغل والعوارض .

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بالتلاوة فقال تعالى ﴿ **وأمرت أن أكون من**

---

(١) الزمر آية ٢٣ .

(٢) الحديد آية ١٦ .

(٣) أخرجه البخارى كتاب فضائل القرآن باب «كان جبريل يعرض القرآن على النبى ﷺ جـ ٩ ص ٤٣ .

المسلمين . وأن أتلو القرآن ﴾ وخاصة بالليل قال تعالى : ﴿ أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلا ﴾ .

والأحاديث كثيرة فى فضل تلاوة القرآن وتعليمه [١] .

● عن عثمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه** » [٢] وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « **الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران** » [٣] .

● وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ « **إن الله يرفع بهذا الكلام أقواماً ويضع به آخرين** » [٤] .

● وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتّلْ كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها** » [٥] .

● وعن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « **من سرّه أن يحب الله ورسوله فلينظر فى المصحف** » [٦] .

● وعن عثمان بن عفان : « لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم » .

وقال خباب بن الأرت : « يا هَنَتَاهُ : تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تقرب إلى الله بشىء أحب إليه من كلامه » [٧] .

---

(١) سنفرد للقرآن كتيبًا خاصًا من جمعنا إن مدّ الله فى العمر .

(٢) رواه البخارى .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم .

(٥) حسن : أخرجه أحمد والترمذى وأبو داود والنسائى وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى فى المشكاة رقم (٢١٣٤) والأرناؤوط فى التعليق على شرح السنة جـ ٤ ص ٤٣٥ .

(٦) حسن : أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن شاهين وابن عدى . وقال ابن رجب « الموقوف أصح » وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (٦١٦٥) .

(٧) خاطب نفسه أى يا هذه ، تفتح النون فيه وتسكن وتضم الهاء الأخيرة وتسكن وقيل معناها : يابلهاء

وقال ابن مسعود : من أحب القرآن أحب الله ورسوله .

• وعن ابن عباس رضى الله عنه : ضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع مافيه هداه الله من الضلالة ووقاه سوء الحساب ، ذلك بأن الله يقول ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾ .

• وقال إسماعيل بن أبي خالد : « وهدوا إلى الطيب من القول » القرآن .. ، « وهدوا إلى صراط الحميد » : الإسلام .

• وقال قتادة : « لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام بزيادة أو نقصان ، قضاء الله الذى قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » .

• وعن « مطرف » فى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية يرجون تجارة لن تبور** ﴾ قال هذه آية القراء .

• وعن عبد الله بن عمير : كان يقال أنقى الناس عقولاً قراء القرآن » .

• وقال كعب : « عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وأحدث الكتب بالرحمن » .

• وقال جندب : [أوصيكم بتقوى الله ، وأوصيكم بالقرآن فإنه نور الليل المظلم ، وهدى النهار فاعملوا به على ماكان فيكم من جهد وفاقة] أ . هـ من قيام الليل للمروزى .

• وقال أحد الصالحين لتلميذه : أتحفظ القرآن ؟ قال : لا . قال : واغوثاه يا لله لمريد لا يحفظ القرآن فبم يتنعم ، فبمَ يترنم ؟ فبم يناجى مولاه ؟

وقال أحمد بن أبي الحوارى : سمعت ابن عيينة يقول : « لا تبلغون ذروة هذا الأمر حتى لا يكون شىء أحب إليكم من الله عز وجل ، فمن أحب القرآن فقد أحب الله عز وجل »[1] .

---

(١) استنشاق نسيم الأنس لابن رجب ص ٤٠ .

ولله در القائل فى علامة المحب لله :

ومن الدلائل أن يُرى متفهمًا لكلام مَنْ يحظى لديه السائل

وقال ذو النون : الأنس بالله العلم والقرآن[1] .

• ومن كلام الفضيل بن عياض : «كفى بالله محبًا ، وبالقرآن مؤنسًا ، وبالموت واعظاً ، اتخذ الله صاحبًا ، ودع الناس جانبًا » وقال « من لم يستأنس بالقرآن فلا أنس الله وحشته »[2] .

• وقال زين القرآن محمد بن واسع : « القرآن بستان العارفين ، فأينما حلّوا منه حلّوا فى نزهة[3] .

• ودموع العين جواب عند تلاوة القرآن .. قال على رضى الله عنه فى وصف الصحابة « كانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة فى اليوم الشديد الريح وجرت دموعهم على خدودهم » .

• وقال زهير البابى : « إن لله عبادًا ذكروه فخرجت نفوسهم إعظامًا واشتياقاً ، وقوم ذكروه فوجلت قلوبهم فرقًا وهيبة ، فلو حرّقوا بالنار لم يجدوا مسّ النار ، وآخرون ذكروه فى الشتاء فارفضوا عرقًا من خوفه ، وقوم ذكروه فحالت ألوانهم غبرًا ، وقوم ذكروه فجفّت أعينهم سهراً[4] .

• وقال الله تعالى : **﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾**[5] .

وفى الأثر « وينيبون إلى الذكر كما تنيب النسور إلى وكورها » .

وقال ابن عمر : أخبرنى أهل الكتب أن هذه الأمة تحب الذكر كما تحب

---

(١) استنشاق نسيم الأنس ص ٤٩ .

(٢) استنشاق نسيم الأنس ص ٥٠ .

(٣) الحلية جـ ٢ ص ٣٤٧ .

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٣١٨ ، ٣١٩ طبعة دار عمر بن الخطاب .

(٥) الرعد الآية ٢٨ .

الحمامة وكرها . ولهم أسرع إلى ذكر الله من الإبل إلى ورودها يوم ظمئها »[1] .

● قال ذو النون : ما طابت الدنيا إلا بذكره .

وأشرف الذكر وأعلاه القرآن .

« والمحب لله طائر القلب كثير الذكر متسبّب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليه من الوسائل والنوافل دأباً وشوقاً

وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للأحباب خُدامُ[2]

● قال مالك بن دينار : « ما تنعّم المتنعمون بمثل ذكر الله »[3] . وصدق رحمه الله ، ولله در القائل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الطعام وتلهيها عن الزاد

وكان رحمه الله يقول : « يا حملة القرآن ماذا غرس القرآن فى قلوبكم ، فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض ، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش فيكون فيه الحبة فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضرّ وتحسن ، فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ، أين أصحاب سورة ، أين أصحاب سورتين ، ماذا عملتم فيهما »[4] .

وقال أيضاً رحمه الله : إن الصديقين إذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة ، ثم يقرأ ، اسمعوا ما يقول الصادق من فوق عرشه[5] .

ولتلك الخاصية والصلة بين الليل والقرآن ، يكثر فى السنة الاهتمام بالتلاوة ليلاً وفضلها ، ويكفيك أن السكينة والملائكة تتنزل بالقراءة ليلاً كما مرّ فى الحديث ، وهاك مجموعة من الأحاديث لنستشعر تلك الصلة : ـ

---

(١) ، (٢) جامع العلوم والحكم ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٣ ، ٤ ، ٥) صفة الصفوة جـ ٣ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٦ .

قال رسول الله ﷺ « **من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه** »[1] كفتاه من قيام الليل أو من الجن والشياطين ، فما بالك لو جمع مع هاتين الآيتين التهجد .

● عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : « اقرؤوا هاتين الآيتين فى أواخر سورة البقرة فإن ربى أعطانيهما من تحت العرش »[2] .

● وعن البراء «كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو ، وجعل فرسه ينفر ، فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فقال : تلك السكينة تنزلت بالقرآن »[3] .

وقال رسول الله ﷺ لعمر وكان يسير معه ليلاً :

« **لقد أنزلت علىّ الليلة سورة هى أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس ثم قرأ ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبيناً﴾** »[4] .

● عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ : « **ألم تر آيات أنزلت الليلة لم يُرَ مثلهن قط ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ ، و﴿قل أعوذ برب الناس﴾** »[5] .

أفلا ترى رحمك الله ترداد كلمة ليلة .. من قرأ فى ليلة ، أنزلت الليلة ، ألا يدعو هذا رجال الليل أن يكثروا من القرآن دواء أشجانهم ، وقد علموا قول رسولهم ﷺ « **من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ،**

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن ابن مسعود ، وأيضًا أحمد فى مسنده ، والدارمى .

(٢) صحيح : رواه أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير وابن نصر وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم (١١٨٣) .

(٣) متفق عليه .

(٤) جزء من حديث عند البخارى باب فضل سورة الفتح .

(٥) رواه مسلم .

لا أقول : ﴿ الم ﴾ حرف . ألف حرف ولام حرف وميم حرف »[1] .

• وقال رسول الله ﷺ « **ما أذن الله لشىء ما أذن للنبى أن يتغنى بالقرآن** »[2] وهو سماع النبيين ألا تسمع قول رسول الله ﷺ لابن مسعود « **إنى أشتهى أن أستمعه من غيرى** » .

• قال الله تعالى عن القرآن وأثره على القلوب الصادقة ﴿ **فتخبت له قلوبهم** ﴾ .

وهل حرّك أشجان المتهجدين وهيّج بلابل أحزانهم سوى سماع القرآن ليلاً .

وكيف لا يدمنون تلاوة القرآن والقيام وهم يسمعون قول النبى ﷺ ودعاؤه لصحابى متهجد ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « سمع رسول الله ﷺ رجلاً يقرأ فى سورة بالليل فقال : « **يرحمه الله لقد أذكرنى آية كذا وكذا كنت أنسيتها من سورة كذا وكذا** »[3] .

• أما عَلِمَ أهل التهجد بشغف رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين رضى الله عنهن بسماع القرآن من أبى موسى الأشعرى ، قال رسول الله ﷺ « **لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود** »[4] وذلك حين مرّ رسول الله ﷺ وعائشة عليه وهو يقرأ فى بيته فقاما يستمعان لقراءته ، فقال أبو موسى « أما أنى لو علمت بمكانك لحبّرته لك تحبيراً » .

وعن أنس أن أبا موسى قام ليلة فسمع أزواج النبى ﷺ صوته وكان حلو

---

(١) رواه الترمذى والدارمى وقال الترمذى حديث حسن صحيح ، غريب إسناداً وقال الألبانى صحيح انظر المشكاة رقم ٢١٣٧ .

(٢) متفق عليه .

(٣) البخارى باب نسيان القرآن جـ ٩ ص ٨٥ .

(٤) رواه مسلم .

الصوت فقمن يستمعن فلمّا أصبح قيل له فقال : لو علمت لحبّرته لهنّ تحبيرًا »[1].

وكيف لا يترنم المتهجدون بالقرآن وهم يسمعون قول نبيهم ﷺ « **حسنوا القرآن بأصواتكم . فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسناً** »[2] .

وعن طاوس مرسلاً قال سُئل النبي ﷺ «أي الناس أحسن صوتاً بالقرآن ؟ وأحسن قرآءة ؟ » قال « **من إذا سمعته يقرأ أُريت أنه يخشى الله** » قال طاوس : وكان طلق كذلك[3] .

فانظر رحمك الله إلى قول المتهجدين عن القرآن :

قال أبو سليمان الدارانى : « ربما أقمت فى الآية الواحدة خمس ليالٍ ولولا أنى أدع الفكر فيها ما جُزتها أبدًا ، ولربما جاءت الآية من القرآن تطير العقل فسبحان الذى ردّه إليهم »[4] .

- وقيل لرجل لِمَ لا تنام ؟ قال : إن عجائب القرآن قد أطرْنَ نومى .
- وقال أحمد بن أبى الحوارى : « إنى لأقرأ القرآن فأنظر فيه آية آية فيحار عقلى فيها فأعجب من حفاظ القرآن كيف يهنيهم النوم ويسعهم أن يشتغلوا بشىء من الدنيا وهم يتلون كلام الرحمن ؟ ! أما لو فهموا ما يتلون وعرفوا حقه ، وتلذذوا به ، واستحلوا المناجاة به لذهب عنهم النوم فرحا بما رُزقوا »[5]

يرحم الله سلفنا الصالح لقد قرأوا القرآن على أنه رسائل من ربهم فقدروه حق قدره ، وقدروا المرسل ، أما نحن فمِمَّن يعاتبنا القرآن وقلوبنا غافلة .

---

(١) لفظ ابن سعد ، والإسناد على شرط مسلم كما قال الحافظ فى الفتح جـ ٩ ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) رواه الدارمى عن البراء بن عازب وقال الألبانى إسناده صحيح ، انظر المشكاة حديث رقم ٢٢٠٨ .

(٣) حديث صحيح لطرق رواه الدارمى وصححه الألبانى فى المشكاة حديث رقم ٢٢٠٩ .

(٤) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٣٢ .

(٥) صفة الصفوة جـ ٤ ص ٢٣٨ .

قال الفضيل بن عياض : « ما ثَمَّ مصيبة أعظم من مصيبتنا يتلو أحدنا القرآن ليلاً ونهاراً ولا يعمل به وكُلُّه رسائل من ربنا إلينا »[1]

إن كنت تزعم حبى فلم هجرت كتابى
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابى

● قال شميط بن عجلان فى وصفه للمؤمنين « أتاهم عن الله تبارك وتعالى أمر وقذهم عن الباطل ، فأسهروا الأعين وأجاعوا البطون وأظمأوا الأكباد وأنفقوا الأموال واهتضموا التالد والطارف فى طلب مايقربهم إلى الله عز وجل وفى طلب النجاة ممّا خوّفهم به » . ويقول رحمه الله : « إن المؤمن اتخذ كتاب الله عز وجل مرآة ، فمرة ينظر إلى مانعت الله عز وجل به المؤمن ومرّة ينظر إلى مانعت الله عز وجل به المُغترّين ، ومرة ينظر إلى الجنة وما وعد الله عز وجل ، ومرة ينظر إلى النار وما أعد الله عز وجل فيها ، تلقها حزيناً كالسهم المرمىّ به شوقاً إلى ماشوّقه الله عز وجل . وهرباً مما خوّفه الله عز وجل منه » .

ولما كان القرآن بستان العارفين سهر العباد والمتهجدون معه وتأملوه وتدبروه وعاشوا فى رياضه « والسير إلى الله بالتهجد بطريق التدبر بالأسماء والصفات ، شأنه عجب وفتحه عجب » « والسائر على هذا الطريق له شهود خاص فيها ، مطابق لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالف له ، وإذا كان السالك ذو همة عالية فذاك السابق حقًّا ، واحد الناس بزمانه ، لا يُلحق شأوه ، ولا يُشق غباره ، وشتان بين من يتلقى أحواله وإرداته عن الاسماء والصفات ومَنْ يتلقاه عن الرسوم والأذواق والوجد »[2] .

أما نسمع قول الله عز وجل ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾[3] ثم

(١) تنبيه المغترين للشعرانى ص ١١٩ .
(٢) طريق الهجرتين ص ٢١٥ .
(٣) الحشر آية : ٢١

يردف هذه الآية بأسمائه وصفاته ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم** ﴾ إلى آخر السورة . فعضّ بالنواجد على هذا الطريق يرسمه لك شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله .

● قال محمد بن كعب القرظى : قرأت فى بعض الكتب : « أيها الصدّيقون افرحوا بى وتنعموا بذكرى »[1]

● ولمّا كان أشرف الذكر وأعلاه تلاوة القرآن ـ فكم يحلو الترنم به وتحلو المناجاة حين تهدأ الأصوات ويتجاوب الكون فى الدياجى مع قارىء القرآن ذى الصوت الحسن .

واسمع رحمك الله إلى يحيى بن معاذ وهو يشوقك إلى القرآن لتكن من هؤلاء القوم الذين قال فيهم رحمه الله « قوم على فرش من الذكر فى مجلس من الشوق وبساتين من المناجاة بين رياض الأطراب وقصور الهيبة وفناء مجالس الأنس مع أنق عرائس الحكمة بصدور الأفهام ، منّاعى زفرات الوجد بفنون الأفراح ، وجوه الآخرة تعاطوْا بينهم كئوس حبه ، سقاهم فيها ، وغوتهم على شربها فرقان الشجى ، تجرى فى الأكباد ، تديم عليهم ذكر الحبيب ، ويبلبلهم معها هيمان الوجود .

طرب الحب على المحب ـ مع الحب يدوم
عجباً لمن رأيناه ـ على الحب يلوم
حول حب الله ماعشت ـ مع الشوق أحوم
وبه أقعد ماعشت ـ حياتى وأقوم[2]

(١) مختصر قيام الليل ص ٢٧ .
(٢) نشأة التصوف الإسلامى .

يا أخي :

أتـاك حـديث لا يمل سماعـه شـهي إليـنا نثره ونـظـامـه
إذا ذكـرتـه الـنفس زال عنـاؤهـا وزال عـن الـقلب الكئيب قتامه

ولما كان الليل يا أخي وقت الأنس بالله والسمر ، وقت الذكر والصفاء ، وقت الشوق والأنين والحنين ، ورجال الأنفاس هم رجال الليل يضيئون ظلمته بنور الإيمان ويملأون صمته بكلام الرحمن ، حتى إذا جاء وقت السحر وما أدراك ما وقت السحر استيقظت القلوب فتلقت من ربها ما تلقت ، وتحمّلت وتحلت ، وأذنت لربها وحُقت ، ولليل عند رجال الله مقام أى مقام ، ولمّا كان للإنسان فى الليل سبحًا طويلاً لمَنْ أراد أن يذكّر أو أراد شكورًا ، كان للقرآن فى الليل مع أهل الليل شأن خاص ، وقد جعل الله الليل لأهله مثل الغيب لنفسه ـ ولله المثل الأعلى ـ فكما لا يشهد أحد فعل الله فى خلقه لحجاب الغيب الذى أرسله دونهم ، فهم خير عصبة فى حق الله ، وهم شرفتية فى حق أنفسهم ، فجعل الليل لباسًا لأهله ، يلبسونه فيسترهم هذا الليل عن أعين الأغيار يتمتعون فى خلواتهم الليلية بحبيبهم فيناجونه من غير رقيب لأنه جعل النوم فى أعين الرقباء سباتًا ، أىْ راحة لأهل الليل إلهية كما هو راحة للناس طبيعية فإذا نام الناس ، استراح هؤلاء مع ربهم ، وخلَوْا به حِسًّا ومعنى ، فيما يسألونه من قبول توبة وإجابة دعوة ومغفرة وغير ذلك ، فنوم الناس راحة لهم ، وإن الله تعالى يَنزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا فأهل الليل هم الفائزون بهذه الحظوة فى هذه الخلوة وهذه المسامرة فى محرابهم ، فهم قائمون يتلون كلامه ويفتحون أسماعهم لما يقول لهم فى كلامه سبحانه إذ قال تعالى ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ يقولون نحن الناس فما تريد منّا يا ربنا فى ندائك هذا ، فيقول لهم عز وجل على لسانهم بتلاوتهم كلامه الذى أنزله ﴿ **اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم** ﴾ وذلك هم رجال الليل يقطعونه ذكراً بقرآن مولاهم ، يقرأونه وكأنهم يستمعون إلى ربهم ويكلمهم بقرآنه ، فكل آية عندهم سؤال وجواب ، وذلك لون من التذوق هبة من هبات الرحمن لأهل الليل ، ومقدار تلك الهبة إنما يعرفها من ذاق .

عن أبي رجاء قلت للحسن : ما تقول فى رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به ، إنما يصلى المكتوبة ، قال : لعمر الله ، ذاك إنما يتوسد القرآن . قلت : قال الله تعالى : ﴿ فاقرأوا ماتيسر منه ﴾ قال نعم ولو خمسين آية[(١)] .

وقال الحسن أيضًا : إن هذه القلوب سريعة الدثور اقدعوها[(٢)] امنعوها هواها ، حادثوها بعمارتها وربيعها القرآن ، القرآن فإنه شافع مشفع ، وماحل مصدق ، والله ما دون القرآن من غنى ، وما بَعْد القرآن من فقر .

فانظر رحمك الله إلى المتهجدين ، إلى قوم لا يجدون لكلام المخلوقين شهوة ، ولا بغير كلام الله لذة . قال ذو النون رحمه الله :

منع القرآن بوعده ووعيده   مقل العيون بليلها أن تهجعا
فهموا عن الملك الكريم كلامه   فهمًا تذلّ له الرقاب وتخضع

فقال بعض من كان حاضرًا فى المجلس : يا أبا الفيض مَنْ هؤلاء القوم يرحمك الله ، فقال : ويحك « هؤلاء قوم جعلوا الركب لجباههم وسادًا ، والتراب لجنوبهم مهادًا ، هؤلاء قوم خالط القرآن لحومهم ودماءهم فعزلهم عن الأزواج وحركهم بالإدلاج ، فوضعوه على أفئدتهم فانفرجت ، وضمّوه إلى صدورهم فانشرحت ، وتصدعت به هممهم به فكدحت ، فجعلوه لظلمتهم سراجًا ، ولنومهم مهادًا ، ولسبيلهم منهاجًا ، ولحجتهم إفلاجًا ، يفرح الناس ويحزنون وينام الناس ويسهرون ، ويفطر الناس ويصومون ، ويأمن الناس ويخافون ، فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون مشمرون ، يبادرون من الفوت ، ويستعدون للموت ، لم يتصغر جسيم ذلك عندهم لعظم ما يخافون من العذاب ، وخطر ما يوعدون من الثواب ، درجوا على شرائع القرآن ، وتخلصّوا بخالص القربان ، واستناروا بنور الرحمن ، فما لبث أن أنجز لهم القرآن موعوده ، وأوفى لهم عهوده ، وأحلهم سعوده ، وأجارهم وعيده ، فنالوا

(١) مختصر قيام الليل ص ٨ .
(٢) أى كُفّوها عما يطلع إليه من الشهوات .

به الرغائب ، وعانقوا به الكواعب ، وأمنوا به العواطب ، وحذروا به العواقب ، لأنهم فارقوا بهجة الدنيا بعين قالية ، ونظروا إلى ثواب الآخرة بعين راضية ، واشتروا الباقية بالفانية ، فنِعْمَ ما اتجروا ، ربحوا الدارين ، وجمعوا الخيرين ، واستكملوا الفضلين ، بلغوا أفضل المنازل بصبر أيام قلائل ، قطعوا الأيام باليسير حذار يوم قمطرير ، وسارعوا فى المهلة ، وبادروا خوف حوادث الساعات ، ولم يركبوا أيامهم باللهو واللذات ، بل خاضوا الغمرات للباقيات الصالحات ، وأوهن والله قوتهم التعبُ ، وغيرّ ألوانهم النصب ، وذكروا نارًا ذات لهب ، مسارعين إلى الخيرات ، منقطعين عن اللهوات ، بريئون من الريب والخنا ، فهم خرس فصحاء ، وعمى بصراء ، فعنهم تقصر الصفات ، وبهم تُدفع النقمات ، وعليهم تُنزل البركات ، فهم أحلى الناس منطقًا ومذاقًا ، وأوفى الناس عهدًا وميثاقًا ، سراج العباد ، ومنار البلاد ، ومصابيح الدجى ، ومعادن الرحمة ، ومنابع الحكمة ، وقوام الأمة ، تجافت جنوبهم عن المضاجع ، فهم أقبل الناس للمعذرة ، وأصفحهم للمغفرة ، وأسمحهم بالعطية ، فنظروا إلى ثواب الله عز وجل بأنفسٍ تائقة وعيون رامقة ، وأعمال موافقة ، فحلّوا عن الدنيا مطىّ رحالهم ، وقطعوا منها حبال آمالهم ، لم يدع لهم خوف ربهم عز وجل من أموالهم تليدًا ولا عتيدًا ، فتراهم لم يشتهوا من الأموال كنوزها ، ولا من الأدبار خزوزها ، ولا من المطامع عزيزها ، ولا من القصور مشيدها ، بلى ، ولكنهم نظروا بتوفيق الله لهم وإلهامه إياهم فحرّكهم ما عرفوا بصبر أيام قلائل ، فضموا أبدانهم عن المحارم ، وكفوا أيديهم عن ألوان المطاعم ، وهربوا بأنفسهم عن المآثم ، فسلكوا من السبيل رشاده ، ومهدوا للرشاد مهاده ، فشاركوا أهل الدنيا فى آخرتهم ، عزوا عن الرزايا وغصص المنايا ، هابوا الموت وسكراته وكرباته وفجعاته ، ومن القبر وضيقه ومنكر ونكير ، ومِنْ ابتدارهما وانتهارهما ، وسؤالهما ، ومن المقام بين يدى الله عز ذكره وتقدست أسماؤه(١) .

(١) الحلية جـ١ ص١٤ ، ١٥ .

رحمك الله يا أبا الفيض فهؤلاء هم المتهجدون أهل الليل والقرآن وهذا نعتهم .

قال الحسن : فضل القرآن على الكلام كفضل الله على عباده [1] .

وأهل الليل يا أخي لا يرضون بالقرآن بدلاً فهو داء قلوبهم . فهم ما نَسَوْا قول الناصح لهم :

أطيلوا على السبع الطوال وقوفكم   تَدُرّ عليكم بالعلوم سحابُ
وفى طيّ أثناء المثانى نفائس   يطيب بها نشر ويُفتح باب
تلى فصّلت لما أتاه مجادل   فأبلس حتى ما يكون جواب
أقرّ بأن القول فيه طلاوة   ويعلو ولا يعلو عليه خطاب

انظر إلى وصف أهل الليل ورجاله من المتهجدين وحالهم مع القرآن يصفهم على بن أبي طالب فيما رُوى عنه : « أمَّا الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن ، يرتلونه ترتيلاً يحزنون به أنفسهم ، ويستثيرون دواء دائهم ، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعًا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً ، وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم ، فهم حانون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم » [2] .

قال أبو موسى الأشعرى : « إن هذا القرآن كائن لكم ذخرًا ، وكائن لكم أجرًا ، وكائن عليكم وزرًا ، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم القرآن ، فإنه من يتبع القرآن يهبط به فى رياض الجنة ، ومن يتبعه القرآن يزخّ فى قفاه حتى يقذفه فى جهنم » [3] وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه : « القرآن حجيج يوم القيامة فلكم أوعليكم » [4] وقال الحسن : « هذا القرآن قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، ولم يأتوا الأمر من قِبَل أوله قال

---

(١) شرح السنة جـ ٤ ص

(٢) نهج البلاغة ص ٢٤٢ ـ كتاب الشعب .

(٣) مختصر قيام الليل ص ٧٦ .

(٤) مختصر قيام الليل ص ٧٦ ، ٧٧ .

تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك ليدبّروا آياته** ﴾ وما تدبرُ آياته إلا اتباعه ، ماهو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفاً ، وقد والله أسقطه كله ، ما ترى القرآن له فى خُلُق ولا عمل ، حتى أن أحدهم ليقول : إنى لأقرأ السورة فى نفس والله ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الوَرِعة ، ومتى كان القرّاء تقول مثل هذا لا أكثر الله فى الناس مثل هؤلاء » .

وقال أيضًا : « ما بقى فى أيدينا بقية غير هذا القرآن فاتخذوه إمامًا ، وائتمنوه على أنفسكم ، واستغشوا عليه أهواء كم ، واعلموا أنه شافع مشفع وماحل مصدق ، من يشفع له القرآن يوم القيامة يُشفع ، ومن محل به صدّق عليه ، وأيْمُ الله إن مِنْ شرار هذه الأمة أقوامًا قرأوا هذا القرآن جهلوا سنته وحرّفوه عن مواضعه ، وإن أحقّ الناس بهذا القرآن مَنْ عَمِل به وإنْ كان لا يقرؤه »[1] .

• ولمّا كان المتهجدون فى ظلم الدياجى جعلوا القرآن شعارهم ودثارهم ، وعلموا أن لله أهلين من الناس وخاصة ، فَعَلَتْ بهم هممهم أن يكونوا هم أهل الله وخاصته ، وسهروا ليلهم مع القرآن تلاوة ، وتدبرًا ، تلاوة سَمَتْ بأرواحهم إلى رياض الفردوس ، وحنّت أسماعهم لصوت داود صاحب المزامير عليه السلام فاتخذوا من القرآن مزامير أنس فى مقاصير قدس بألحان توحيد فى رياض تمجيد ، وما طربت آذانهم إلا لشدو المثانى فى تلك المعانى المؤدية بأهلها إلى النعيم الدائم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وكان هذا لهم خبراً فما طعم النظر؟

ولما تدبروا آياته براهم الخوف برى القداح ينظر الناظر إليهم فيقول مرضى ، وما بهم مرض ، ويقول قد خولطوا وما خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم جعلوا الذكر جلاءً للقلوب ، تسمع به بعد الوقْرة ، وتبصر به بعد العشْوة ، وتنقاد به بعد المعاندة ما ناجاهم ربهم فى فكرهم ، وكلمّهم فى ذات عقولهم فاستصبحوا بنور يقظة فى الأبصار والأسماع والأفئدة .

ولقد اتخذ المتهجدون القرآن من الدنيا بدلاً يقطعون به أيام الحياة ، فكأنهم قطعوا

(١) مختصر قيام الليل ص ٧٦ .

الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ فى طول الإقامة فيه . وحققت القيامة عليهم عداتها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا . فلو مثلتهم لعقلك فى مقاومهم المحمودة ، ومجالسهم المشهورة ، وقد نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم فى كل صغيرة وكبيرة ، وحملوا ثقل أوزارهم ظهورهم فنشجوا نشيجاً وتجاوبوا نحيباً ، يعجون إلى ربهم من مقام خوف وندم واعتراف ـ لرأيت أعلام هدى قد أعدّت لهم الكرامات وتنزلت عليهم السكينة ، فى مقام اطلع الله عليهم فيه فرضى سعيهم وحمد مقامهم ، يتنسَّمون بدعائه رَوْح التجاوز ، رهائن فاقة إلى فضله ، وأُسارَى ذلة لعظمته ، وجرح طولُ الأسى قلوبهم ، وطولُ البكاء عيونهم ، لكل باب رغبة إلى الله منهم يد قارعة ، يسألون مَنْ لاتضيق لديه المنادح ولا يخيب عليه الراغبون »(١) .

فهاهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد حفرت الدموع خطان أسودان فى وجهه .

قال الحسن : كان عمر رضى الله عنه يمر بالآية من ورده بالليل فيبكى حتى يسقط ، ويبقى فى البيت حتى يعاد للمرض(٢) .

وسمع رضى الله عنه رجلاً يتهجد فى الليل ويقرأ سورة الطور ، فلمّا بلغ إلى قوله تعالى : ﴿إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع﴾ قال عمر : قسم ورب الكعبة حق ، ثم رجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس لايدرون مامرضه »(٣) .

وكان تحت عينى ابن عباس مثل الشراك البالى من كثرة الدموع .

وكان جماعة من عباد البصرة قد مرضوا من تدبر القرآن وخوف النار ولزموا منازلهم كالعلاء بن زياد وعطاء السلمى . واشتكى داود الطائى أياماً ، وكان سبب علته أنه مرّ بآية فيها ذكر النار فكررها مرارا فى ليلته فأصبح مريضا فوجدوه قد مات(٤) .

---

(١) بتصرف من نهج البلاغة ص ٢٧٠ .

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ١٦٨ ، ١٦٩ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

(٣) التخويف من النار ص ٢٩ .

(٤) التخويف من النار ص ٢٩ ، ٣٠ .

وسل منصور بن عمار عن قتيل جهنم ذلك الشاب الذى مرَّ ذكره ومات بسبب آيه

● واسمع يا أخى قوارع القرآن ومواعظه وتعال أخبرك بالعجب العجاب من حال سيد من سادات المسلمين على بن الفضيل بن عياض مات من سماع قراءة هذه الآية ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا نكذّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين** ﴾ (١) .

● وسل عمر بن المنكدر وسل سادات المتهجدين عمّا فعلت آيات القرآن بهم . لقد كانت آيات القرآن محرك أشجانهم ومواجيدهم ، بل وهزّهم الحنين إلى روضات الفردوس إذا ذكروا الجنة ، وتنعموا بكلام مولاهم لأنهم علموا أن كلام الملوك ملوك الكلام ، وطافوا برياض الأسماء والصفات ، قدّسوا مولاهم بألسن التماديح فى القرآن ، وأفواه التسابيح وأورثهم ذلك شوقاً إليه وتذللاً بين يديه ، وحبًّا نحلت منه أجسادهم وفاضت مآقيهم بالدموع والعبرات

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا ... وتذبل حتى ما تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يُبَقّى لك الهوى ... سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

كان القرآن روحهم وريحانهم ، ونزهتهم وبستانهم .

ولله در القائل :

شواهد أهل الحب باد دليلها ... بأعلام صدق ما يضل سبيلها
جسوم أولى صدق المحبة والرضى ... تبين عن صدق الوداد نحولها
إذا ناجت الأفهام أنس نفوسهم ... بألسنة تخفى على الناس قيلها
وضجّت نفوس المستهامين واشتكت ... جوى كان عن أجسامها شر بيلها
يحنون حزناً ضاعف الخوف شجوه ... ونيران شوق كالسعير عليلها

---

(١) التخويف من النار لابن رجب ص ٣١ .

وساروا على حب الرشاد إلى العلى   تؤمهم تقواه وهو دليلها
فحطوّا بدار القدس فى خير منزل   وفاز بزلفى ذى الجلال حلولها[1]

ولا يعلم إلاّ الله ثم نفوسهم الطاهرة وقع آيات القرآن على أفئدتهم حتى أناطوا برياض القدس . وكم روّحهم نسيم الآيات ، ولم تصل إلينا إلا إشاراتهم وعباراتهم وكم حاولوا إخفاءها ولكن عبير التهجد يفوح عبقاً من خلال تلك الكلمات النيّرات . إن العبارة الواحدة من عباراتهم ، من أثر التهجد بالقرآن لو اجتمع المتأخرون على أن يأتوا بمثلها ولو نمّقوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وما كانت تخرج تلك الكلمات منهم إلاّ عفوًا.

دع الشوق لأناس يعرفون به   قد مارسوا الحب حتى لان أصعبه
رحل من أصفه وبقى من لا أعرفه

لمن الطلول كأنهن   بجذع ذى سلم سطور
تطوى معالمها الصّبا   طورًا وتنشرها الدبور
وكفَتْ بها من أدمعى   فى الركب غادية درورُ
ولقلّ ما تحوى الدمو   عُ وينفع الصبَّ الزفير
أقْوَتْ من الحى الديّا   رُ فمالها فى العين نور

---

(١) الحليّة جـ ٩ ص ٣٧٨ .

لما علموا قول رسولهم ﷺ : « **إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره ، وإن لم يقم به نسيه** »[1] .

يخبرهم ويقول لهم عبدة بن أبي لبابة الأسدي التابعي : « إذا ختم الرجل القرآن بنهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى ، وإن فرغ منه ليلاً صلّت عليه الملائكة حتى يصبح »[2] فكيف يطيب لهم العيش إلا بالتنافس في الختم وإنارة الليالي بصلاة الملائكة وهم أحوج الناس إليها . إن كانت تتنزل بقراءتهم في الدياجي فهم مشتاقون إلى صلاتهم « كل يهيج لهم ذكرى تشوّقهم إلى الملأ الأعلى » .

فمنهم من كان يختم في كل يوم وليلة ، ولقد كان عثمان رضي الله عنه يختم في الوتر وصح ذلك عنه ، وتميم الداري وسعيد بن جبير ومجاهد والشافعي .

وعن كثيرين في كل ثلاث . والذين ختموا في الأسبوع مرة فكثيرون نُقل ذلك عن عثمان وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ، وجماعة من التابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وإبراهيم .

وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليلة ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث** »[3] وهذا اختيار أحمد وأبي عبيد واسحاق بن راهويه وقد ثبت عن كثير من السلف ـ كما يقول الحافظ في الفتح : كالشافعي ـ أنهم قرأوا القرآن في دون ذلك .

---

(١) إسناده صحيح : أخرجه ابن نصر في « قيام الليل » عن ابن عمر ، وقال الألباني إسناد صحيح ورجاله كلهم رجال الشيخين . انظر الأحاديث الصحيحة رقم (٥٩٧) .

(٢) أخرجه الدارمي ٤٦٩/٢ بسند صحيح كما قال الشيخ شعيب والشاويش في تحقيق شرح السنة جـ ٤ ص ٤٩٣ .

(٣) إسناده صحيح : رواه أبو داود والنسائي والترمذي والدارمي وقال حديث حسن صحيح . وصححه النووي في « التبيان في آداب حملة القرآن » ص ٣٠ ، وقال الألباني : إسناده صحيح انظر المشكاة رقم ٢٢٠١

قال النووى : « والاختيار أن ذلك يختلف بالأشخاص ، فمن كان من أهل الفهم وتدقيق الفكر استحب له أن يقتصر على القدر الذى لا يختل به المقصود من التدبر واستخراج المعانى ، وكذا من كان له شغل بالعلم أو غيره من مهات الدين ومصالح المسلمين العامة يستحب له أن يقتصر منه على القدر الذى لا يخلّ بما هو فيه ، ومن لم يكن كذلك ، فالأولى له الاستكثار ما أمكنه من غير خروج إلى الملل ولا يقرؤه هذرمة والله أعلم »[1] .

« ولقد أغرب بعض الظاهرية فقال : يحرم أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث . وقال النووى : أكثر العلماء على أنه لا تقدير فى ذلك ، وإنما هو بحسب النشاط والقوة ، فعلى هذا يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والله أعلم »[2] .

قال الحافظ ابن رجب فى كتابه « لطائف المعارف » : (١٨١ ، ١٨٢) : ـ

« وإنما ورد النهى عن قراءة القرآن فى أقل من ثلاث على المداومة على ذلك ، فأما فى الأوقات المفضلة ، كشهر رمضان خصوصًا الليالى التى يطلب فيها ليلة القدر أو فى الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتنامًا للزمان والمكان وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره » أ . هـ .[3]

ولله در القائل :

لولا الذين لهم ورد يقومونا ... وآخرون لهم سرد يصومونا
لدكدكت أرضكم من تحتكم سحرًا ... لأنكم قوم سوء لا تطيعونا

ولقد بوّب النووى وعقد فصلاً فى المحافظة على القراءة بالليل وقال رحمه الله :

« ينبغى أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن فى الليل أكثر ، وفى صلاة الليل أكثر والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة .

---

(١) « التبيان فى آداب حملة القرآن » ص ٣٠ طبع مصطفى الحلبى ، وفتح البارى جـ ٩ باب « فى كم يقرأ القرآن من كتاب فضائل القرآن » ص ٩٧ .

(٢) الفتح جـ ٩ ص ٩٧ .

(١) مذهب مالك : جواز ذلك وسيأتى فى التراويح فصل : ـ « من اختار الصلاة وحده على القيام مع الناس

وقال : وإنما رجّحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب وأبعد عن الشاغلات والملهيات ، والتصرف فى الحاجات ، وأصون عن الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات فى الليل فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً ، وحديث « **ينزل ربكم كل ليلة** .... » الحديث والصحيح عن رسول الله ﷺ قال « **فى الليل ساعة يستجيب الله فيها الدعاء فى كل ليلة** ، **وكلما كثرت القراءة والصلاة كان أفضل إلا أن يستوعب الليل كله فإنه يكره الدوام عليه وإلا أن يضرّ بنفسه** »[1] أ . هـ .

عجبت من جسم ومن صحة ومن فتى نام إلى الفجر
والموت لا يؤمن من خطفاته فى ظلم الليل إذا يسرى

● نعم يا أخى لقد كان للقرآن مع المتهجدين شأن أى شأن علموا أن مولاهم « أنزله نورًا لا تطفأ مصابيحه فاستضاءوا به ، وسراجًا لا يخبو توقده ، وبحرًا لا يُدرَك قعْره ، فغاصوا طلبًا للآلئه ، ومنهاجًا لا يُضل نهجُه فتركوا لأجله بنيات الطريق ، وشعاعًا لا يُظلِم ضوؤه ، وفرقانًا لا يُخمد برهانه ، وتبيانا لا تُهدم أركانه ، وشفاءً لا تُخشى أسقامه ، فجعلوه دواء أمراضهم ، وعزًا لا تهزم أنصاره فثبت عزهم به ، وحقًا لا تخذل أعوانه ، فهو معدن الإيمان لهم وبُحبوحَتُه[2] ، وينابيع العلم وبحوره ، فشربوا من منهله ورياض العدل وغدرانه ، وأثافى[3] الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه[4] ، وبحر لا يَنْزفه المنتزِفون ، وعُيون لا يُنضِبها الماتحون[5] ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها

(١) « التبيان فى آداب حملة القرآن » للنووى ص ٣٢ ، ٣٤ .
(٢) بحبوحته : وسطه .
(٣) الأثافى : جمع أثفية : الحجر يوضع عليه القدر . أى عليه قام الإسلام .
(٤) غيطان الحق : جمع غاط أو غوط وهو المطمئن من الأرض .. أى أن هذا الكتاب منابت طيبة يزكو بها الحق وينمو .
(٥) جمع ماتح : نازع الماء من الحوض .

السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون [1] . جعله الله ريًّا لعطش العلماء ، وربيعًا لقلوب الفقهاء ، ومحاجّ لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعده داء ، ونورًا ليس معه ظلمة ، وحبلاً وثيقاً عروته ، ومعقلاً منيعًا ذروته ، وعزًّا لمن تولاه ، وسلمًا لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وعذرًا لمن انتحله [2] ، وبرهانًا لمن تكلم به ، وشاهدًا لمن خاصم به ، وفلْجًا [3] لمن حاج به ، وحاملاً لمن حمله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجُنة لمن استلأم وعلمًا لمن وعى ، وحديثًا لمن روى ، وحكمًا لمن قضى » [4] .

لمّا علموه هكذا سمت هممهم إلى الرفيع من المحل ، واشتاقت نفوسهم إلى الملك الأعلى الأجل ، فلو رأيتهم لرأيت قومًا يتلون كتاب الله بشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة ، وأجسام ناحلة ، وخواطر فى عظمته جائلة :

لله قوم شروا لله أنفسهم ... فأتعبوها بزجر الله أزمانا
أما النهار فقد وافوا صيامهم ... وفى الظلام تراهم فيه رهبانا
أبدانهم أتعبت فى الله أنفسهم ... وأنفس أتعبت فى الله أبدانا
ذابت لحومهم خوف الحساب غدًا ... وقطعّوا الليل تسبيحًا وقرآنا [5]

---

(١) طرق الحق تنتهى إلى أعالى هذا الكتاب وعندها ينقطع سير السائرين .
(٢) انتحله : انتسب إليه ودان به .
(٣) الفلج : الظفر والفوز ـ استلأم : لبس الأمة وهى الدرع وجميع أدوات الحرب أى كان القرآن وقاية له .
(٤) انظر نهج البلاغة .
(٥) بستان الواعظين لابن الجوزى ص ٣٧٦ .